التحرير الوطني من منظور الشيخ محمد البشير الإبراهيمي

د/- جمال قندل
جامعة الشلف

الملخص:

تعالج هذه الدراسة إشكالية التحرير الوطني من سيطرة الاحتلال الفرنسي الذي جثم على أديّم الجزائر دون وجه حقّ أمدا بعيدا، معتمدا آليات كثيرة ومتنوعة، تباينت شكلا واتفقت مضمونا، حيث توخت تعميق الاحتلال بمختلف أبعاده وصوره. لذلك تباينت فكرة التحرير وتعددت بتعدد المناهل والرؤى، وهو ما سنعالجه من خلال تفكيك فكرة التحرير من منظور أحد رجالات الإصلاح الكبار في الجزائر، الذي حمل مشروعا نهضويا على غرار المشاريع النهضوية التي صاغها المصلحون والمفكرون قبله في العالمين العربي والإسلامي، ورافع من أجله بل ودافع عنه دفاعا مستميتا قبل وبعد الاستقلال، انطلاقا من رؤية خاصة تقوم على أسس ومنطلقات.

الكلمات المفتاحية:

الاحتلال الفرنسي، طمس الهوية؛ الثقافة العربية الإسلامية؛ المدارس؛ الصحف، المقاومة المسلحة؛ الإذاعة؛ البيان؛ الجبهة؛ اللغة؛ الاستقلال.

Summary:

This study deals with the problem of national liberation from the control of the French occupation, which has been on the foundations of Algeria without long-term rights, and adopted many mechanisms and varied, different form and agreed content, as it sought to deepen the occupation in all its dimensions and image. So the idea of editing varied and multiple plenaries and visions , Which we will solve through the dismantling of the idea of liberation from the perspective of one of the great reformers in Algeria, who carried a project of modernity model of reformist projects formulated by reformers and thinkers before him in the Arab and Islamic worlds, and for him and even defended a desperate defense

before and after independence , Hang out It is based on a special vision based on foundations and starting points.

- Key words:

French occupation, obliterating identity; Arab-Islamic culture; schools; newspapers; armed resistance; radio; statement; front, language; independence.

مقدمة :

شهد العالم العربي والإسلامي خلال القرنين الثامن والتاسع عشر، حركة احتلال واسعة، تباينت شكلا واتفقت مضمونا، كما اختلفت من حيث الشدّة والقوّة. غير أن اللافت في المسألة أن القوى المستعمرة اعتمدت آليات كثيرة ومتنوعة بغرض توسيع الاحتلال وتعميقه ليغطي نطاق الجغرافية الطبيعية، باعتبارها المجال الحيوي لتكريس الهيمنة، في مقابل الهدم الشامل لمختلف البنى للدول الخاضعة للاحتلال، باعتماد الخيار الأمني القائم على القوّة والقمع بدرجة رئيسة.

وقد عاش الشيخ محمد البشير الإبراهيمي فترة الاحتلال الفرنسي، ورأى عن كثب جلد مؤسسات الاحتلال في الاجتهاد، رغبة في إيجاد البدائل الكفيلة بتكريس الهيمنة الشاملة والسيطرة الكاملة، من خلال ضرب المقاومة كرغبة قائمة في النفوس وفكرة دافعة وضاغطة، على نحو يفضي إلى شلّ الإرادة بشكل متدرج. والإشكالية الرئيسة في هذا السياق هي: ما هي رؤية الشيخ الإبراهيمي لقضية التحرير الوطني باعتبارها قضية رئيسة للتخلص على نحو نهائي من الهيمنة والاحتلال الأجنبي؟ وما الآليات التي اعتبرها كفيلة بإنجاح مهمّة التحرير الوطني؟

إن الإجابة على الإشكالية المحورية عبر هذه الدراسة، ترنو تقديم قراءة لفلسفة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في التغيير المفضي إلى التحرير الوطني.

1. التحرير مبدأ ومنطلق:

آمن الشيخ الإبراهيمي بضرورة وجوب خدمة الأوطان وتحريرها من كافة أشكال الاستبداد والطغيان، ولعلّ الاحتلال الفرنسي الجاثم على أديم الجزائر، دون وجه حقّ، منذ الخامس جويلية 1830شكّل مدار اهتمام العلماء، بالنظر إلى التداعيات السلبية التي أنتجها، حتى غدا الشعب الجزائري أسير الجهل، معطّل الفكر ومشلول الإرادة، حيث أخذ العلماء على عاتقهم وعلى رأسهم الإبراهيمي مهمّة غاية في الصعوبة، تمثلت برأيه في مواجهة استعمارين جثما على صدور الجزائريين، دون وجه حق، حيث تمثل الأول، في الاستعمار الداخلي الذي مثله الجهل الذي أشاعه الطرقيون أو الوجود المرابطي، من خلال التأثير على المجتمع الجزائري، بصورة جعلت الفرد أسير تصورات خاطئة، حالت في الكثير من الأحيان دون حراكه، فيما تمثل الثاني في الاحتلال الاستيطاني الفرنسي الذي أشاع في الجزائر الفساد على اختلاف طبيعته، حتى يتأتى له إحكام قبضته و بسط هيمنته[1]. ولذا فإن تحقيق الانتصار على الاستعمار الداخلي، يشكل المدخل الرئيس لمواجهة الاستعمار الخارجي الذي كان يكن العداء للجمعية ويظهره بمعية أنصاره وصنائعه، لا لشيء إلا لأن الجمعية وقفت بينهم وبين الأمة سدّا منيعا وفضحت سرائرهم وما يبيتون للإسلام والعربية في الجزائر من كيد. وقد لخّص الإبراهيمي رؤيته لتحرير الأوطان، في قوله:" ...وإن تحرير العقول لأساس لتحرير الأبدان، وأصل له، ومُحال أن يتحرر بدن يحمل عقلا عبدا"[2].

كما اعتبر في الآن ذاته، مسألة تحرير العقول الرامية إلى إيقاظ الأمّة من خلال بعث القوة فيها، باتجاه التمييز بين الصالح من الرجال والصحيح من المبادئ وبين الطالح والزائف منها، الأمر الذي يجعل المهمّة غاية في الصعوبة، لأن هذا النوع من التحرير يتطلب نفسا طولا وجهدا كبيرا ومضنيا، ولا يقدر على القيام به ولا يقوى عليه إلا العلماء الربانيون المصلحون، على اعتبار أنه أثر طبيعي للإصلاح الديني الذي أخذته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين على نفسها بقوة وصدق[3].

1- مجال حركة ونشاط الشيخ الإبراهيمي

1-2 نشر العلم ومواجهة الطرقية

ظلّ الشيخ الإبراهيمي رفقة علماء ودعاة الجمعية يسعون إلى كسر طوق الجهل[4] الذي تفشى بين الجزائريين على نحو كبير، بالتركيز على مسألتي التربية والتعليم، باعتبارهما حجر الزاوية في أي عملية تغييرية، ولإنجاح المهمّة، كانت الانطلاقة من التعليم المسجدي كخطوة أولى، ثم تلتها الخطوة الأخرى، ممثلة بالمدارس الحرّة التي أنشأتها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، عبر امتداد مناطق الجزائر، حتى بلغت إلى غاية سنة 1954، ستمائة مدرسة، يؤطرها معلمون وأساتذة مؤهلون.

وقد أدرك الإبراهيمي بنظرته الثاقبة، أهمية التعليم وضرورته في مواجهة سياسة التجهيل التي اعتمدها الاحتلال الفرنسي بغرض ترسيخ وتعميق وإنجاح الأهداف التي رُسمت من طرف قيادة الاحتلال. غير أن ما يدعو للإشارة، أن الطرقيين شكّلوا أداة بيد الاحتلال الفرنسي من حيث دعوتهم الفردية والجماعية على حد سواء، الأمر الذي أكسبهم مع مرور السنوات سلطة معنوية على الشعب الذي كان يتخبط في الجهل. وقد ذكر الشيخ الإبراهيمي في معرض حديثه عن الطرقية وسلطتها والفساد الذي أشاعته، "إن الطرقية في صميم حقيقتها، احتكار لاستغلال المواهب والقوى، واستعمار بمعناه العصري الواسع، واستعباد بأفظع صوره ومظاهره"[5].

ولم يتوقف الإبراهيمي عند هذا الحدّ، بل راح يشرّح حال أمّة الإسلام في مواقع كثيرة، ويدرس راهنها ويستشرف مستقبلها في ظل استمرار الاحتلال الطرقي، حيث ذهب في هذا الصدد، إلى القول:" ..ومع أننا نعلم أن الطرق منتشرة في العالم الإسلامي وأن آثارها فيه متشابهة ، وأنها هي السبب الأقوى في كثير مما حلّ به من النكبات، وكثيرا ما كانت مفتاحا لاستعمار ممالكه، فإن حربنا موجهة أولا وبالذات إلى طرق الشمال الإفريقي"[6].

في ضوء ذلك، فإن العملية لم تكن ميسورة قطّ، لوجود معيقات كثيرة ومُثبطات مختلفة، نتيجة تراكمات تاريخية، جعلت الأمد يطول على تلك الطرق، حتى شاب الوالد وشبّ الولد، وغدت الأسماء المروجة لأصحاب الطرق، ذات إجلال وقداسة[7].

وانبرى الإبراهيمي ومن سلك مسعاه من أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، فاضحا لباطلهم على مرأى ومسمع من الناس، ومحررهم من قبضتهم وسلطانهم، حتى ينفض الناس من حولهم، كما أنكر عليهم صنيعهم بالدليل من صريح القرآن وصحيح السنّة وسير الأعلام و السلف، غير أنهم تشبثوا بمواقفهم وعضّوا على أفكارهم و معتقداتهم بالنواجذ، بل راحوا يؤلبون الناس على العلماء، وعلى رأسهم الإبراهيمي الذي مضى يقول على تداعيات إنكاره لهم،:"..وذلك أننا لما أنكرنا عليهم باطلهم الذي يرتكبونه باسم الدين، زعموا أن الطريق هي الدين، ولما نقضنا لهم هذه الدعوى، تنزلوا فزعموا أن لها حبلا واصلا بالدين وسندا متصلا بالسلف، ولما بينا لهم أن الحبل مقطوع وأن السند منقطع قالوا، إن هذه الطرقية مرت عليها قرون ولم ينكرها العلماء، فبينا لهم أن عدم إنكار العلماء الباطل لا يُصيره حقا، ومرور الزمن عليه لا يصيره حقا، وقلنا لهم إذا كان سلفكم مثل أعمالكم فهم مبطلون مثلكم ..."[8] .

وصرخ الشيخ الإبراهيمي، معلنا رفضه المطلق للباطل الذي ما انفك يسوقه الطرقيون ويسعون لإشاعته بين الناس، رغبة ورهبة، لتعميق تمكينهم، بعد أن أدركوا الخطر المحدق بهم، بعد تأسيس جمعية العلماء، لذلك حاربوها، بإيعاز ودعم من سلطة الاحتلال، التي يخدمها التمزق والغرق وسط الجهل والغزو الذي تمارسه الطرقية، الأمر الذي يحول دون التفكير في التحرير الوطني. حيث أبان الإبراهيمي عن طول واستمرار المواجهة بين التحرر الذي تمثله الجمعية القائمة على العلم والتربية، وبين الاحتلال الذي تمثله الطرقية الراغبة في استمرار الطوق المضروب على الشعب، محذرا في هذا الصدد بقوله:" ...أما أن يعبثوا بالدين، كل هذا العبث، وبما حرّم الله من أعراض المسلمين وأحوالهم، ثم يريدون أن نسكت، كما سكت العلماء من قبلنا، فلا والله ولا كرامة"[9].

وقد أثمرت جهود الشيخ الإبراهيمي في تنقية العقول وتزكية النفوس، نتائج كبيرة ومشهودة، تجلّت أماراتها في الإقبال على التعليم في مدارس جمعية العلماء المسلمين[10] على امتداد مناطق الجزائر، من البنين والبنات، على اعتبار أن الإبراهيمي لم يُبعد المرأة الجزائرية من العمل التربوي والتعليمي القاعدي، لتنشئتها التنشئة السليمة، حتى تُسهم بدورها في صياغة عقلية الفرد الجزائري صياغة صحيحة ومُدركة لأبعاد المهمّة الرسالية الواجب الاضطلاع بها. وقد ميّز في موضوع المرأة، بين مرحلتين، أو بالأحرى بين "فجرين: فجر كاذب وآخر صادق" كما سمّاهما في مداخلة له بمصر، بعد أن ألّحوا عليه، على أن يحدثهم حول موضوع المرأة[11].

واعتبر الفجر الكاذب، المرحلة التي ولجتها المرأة الجزائرية، من خلال طرقها أبواب المدارس الفرنسية، ورغم بعض النجاحات الجزئية، إلا أن مسيرتها توقفت عند ذلك الحدّ. أما الفجر الصادق، حسب الشيخ الإبراهيمي، فقد ارتبط بظهور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي لم تُميز في العملية التعليمية بين البنين والبنات[12] بل ما فتئت تحضّ الأولياء على ضرورة تعليم بناتهم، وكان لدعوتها استجابة واسعة، عكست عمق الثقة التي باتت تحظى بها وإيجابية التفاعل المجتمعي معها.

2-2 تأسيس الصحف والمساهمة الفكرية

اهتمّ الشيخ الإبراهيمي بالصحف والمجلات، تأسيسا ودعما، إدراكا منه لدور الإعلام في التعريف بفلسفة الجمعية في التغيير المجتمعي ومبادئها، فضلا عن نشرها للفضائل في المجتمع الجزائري، وقد كانت البداية بجريدة" المنتقد"[13] التي كانت حادة جدا، من حيث انتقادها لتصرفات وأعمال إدارة الاحتلال الفرنسي التعسفية تجاه الشعب الجزائري، كما كانت في الآن ذاته فاضحة للطرقية والطرقيين وكاشفة لانحرافهم، ومحذرة للشعب من مغبة السير وراءها.

وبعد حلّ "المنتقد" ظهرت جريدة "الشهاب"، حيث كانت في البداية أسبوعية ثم تحولت إلى مجلّة شهرية، ثم جريدة "البصائر"، في خطوة تعكس إصرار جمعية العلماء ورغبة أعلامها في تطوير الأداء الإعلامي شكلا وموضوعا، حتى يتأتى له تحقيق الأهداف المرسومة.

وقد كانت للشيخ الإبراهيمي إسهامات فكرية متنوعة وعديدة، عالج فيها قضايا سياسية، دينية، اجتماعية و اقتصادية، من منظور جمعية العلماء المسلمين، حيث دعا سنة 1950من خلال مقال له في جريدة البصائر، جاء موسوما بـ" ويحهم ...أهي حملة حربية؟"، الشعب الجزائري إلى ضرورة الأخذ بأسباب القوة، كحلّ أساس لتغيير واقع الجزائريين ، بعد أن حلّل الحالة التي بات يحياها الجزائري بالقول:" لك الله، أيها الشعب المعذب، لقد هُنت عليهم حين هُنت على نفسك، إنهم ما ضربوك إلا بعد أن جربوك، وما جرفوك إلا بعد أن عرفوك، وما جنوا عليك واتهموك إلا بعد أن قرأوك و فهموك، فلا تلمهم، ونفسك فلُم، وغيّر ما بنفسك...إن القوم لا يدينون إلا بالقوّة، فاطلبها بأسبابها، وأقوى أسبابها العلم، وأوسع أبوابها العلم، فخذهما بقوّة تعش حميدا، وتمُت شهيدا"[14].

وفي خطوة أخرى، كانت أشدّ وطأة على سلطات الاحتلال الفرنسي، انبرى الإبراهيمي مدافعا عن وجوب فصل الدين عن الدولة، ورفع اليد على نحو نهائي عن كل شأن من شؤون الإسلام في الجزائر، ومهددا في الآن ذاته الاحتلال من التمادي في سياسة الهروب إلى الأمام من خلال الاستئناس بموقف المجلس الجزائري من قضية فصل الدين عن الدولة. حيث قال الإبراهيمي في هذا السياق:" وكان في هذا المجلس كثير من اسمه محمد وهو عدو لمحمد ودين محمد...وما ظنّ الاستعمار بجمعية العلماء؟ أيظن أنها تمل وتكل فتضعف فتستكين؟ لا والله، ولقد خاب ظنّه وطاش سهمه، إنما يكل من كان في ريب من أمره وفي عماية من عمله، أما من كان من أمره على بيّنة ومن عمله على بصيرة، ومن ربه على عهد فهيهات لما يظنّه به الظانون، وإن جمعية العلماء لفي موقفها الثابت، وعلى عقيدتها الراسخة، وفي ميدانها لفسيح من الكفاح..."[15].

2-3-ربط التحرير الوطني بالهوية الإسلامية

تجاوب الشيخ الإبراهيمي على نحو إيجابي مع نداء الثورة الرامي إلى التحرير الوطني واستجاب لصرخة الجهاد التي دوّت في ربوع الجزائر، في الفاتح نوفمبر 1954. وقد شكّل ذلك سانحة ثمينة لطالما انتظرها الشيخ الإبراهيمي، وهو ما أزّه باتجاه الأخذ بيد المجاهدين في الجزائر. وحول التفاعل الإيجابي مع الفعل الثوري، ذهب المؤرخ أبو القاسم سعد الله، إلى القول:" يبدو لنا أن الشيخ الإبراهيمي، كزعيم وطني، كان الوحيد الذي لا ينحرف عن الخط الذي رسمته الجمعية كما انحرف غيره من الزعماء عن الخط الذي رسمه تنظيمهم...وعندما أعلن الشعب ثورته، كان الشيخ الإبراهيمي، أول من احتضنها من الزعماء بالخصوص مصالي وعباس، رغم أنه كان في المشرق، بعيدا عن الوطن..."[16].

وبذلك يكون الشيخ الإبراهيمي أول شخصية رسمية جزائرية، تعلن مباركتها للثورة ومساندتها لكفاح الشعب الجزائري، من أجل التحرير واستعادة الاستقلال الوطني. في الوقت الذي جنحت فيه الأحزاب والتشكيلات السياسية الأخرى، الناشطة في الساحة، إلى التنديد بالعمل الثوري والدعوة عبر مختلف المنابر إلى الإصلاحات السياسية، الاقتصادية، والاجتماعية الكفيلة بإطالة عمر الاحتلال، فضلا عن سعيها باتجاه العمل من أجل المشاركة في العملية الانتخابية، رغم نداءات جبهة التحرير الوطني بضرورة الكفّ عن تلك الممارسات الضارة بالثورة، والعمل على إدارة الظهر للنضال ضمن الشرعية الصورية التي ما فتىء يوفرها الاحتلال، والتي لم تكن قطّ، إلا وسيلة لإعطائه شرعية لا غير.

2-3-1- بيانات مباركة الثورة والدعوة إلى الالتفاف حولها

ولعلّ ما يدعم ما ذهبنا إليه ويؤكده هو الوثائق ذات الصلة بالموضوع، حيث صدر بيان في القاهرة بإمضاء كل من الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، والفضيل الورتلاني بتاريخ 2 نوفمبر 1954 ونشرته الصحافة المصرية وكذا وكالات الأنباء العالمية بتاريخ 3 نوفمبر 1954[17].

وهو ما أكسب الجمعية في الخارج السبق في مباركة ومساندة الثورة في الجزائر، على خلاف زعماء التنظيمات السياسية الأخرى الناشطة في الساحة [18]. وهو ما يؤشر على عمق فهم قيادة الجمعية لمتطلبات المرحلة، ولهذا جاء البيان مساندا للثورة في الجزائر، بعد أن تناهى إلى سمع الشيخين نبأ لهيب ثورة اندلع في عدّة جهات من القطر الجزائري. ولعل تعاطي الوسائط الإعلامية المختلفة مع ما وقع في الجزائر، من حيث تتبع الوقائع، زمانا ومكانا، جعل الشيخين يتوقان لهذا اليوم المشهود وقد عبرا عن ذلك بالقول:" فخفقت القلوب لذكرى الجهاد... واهتزت النفوس طربا لهذه البداية التي سيكون لها ما بعدها... إن اللحن الذي يشجي الجزائري، هو قعقعة الحديد في معمعة الوغى، وأن الرائحة التي تعطر مشامه هي رائحة هذه المادة التي يسمونها البارود ... "[19].

وقد ذكّر البيان، بالسياسة البليدة التي حكمت بها فرنسا شمال إفريقيا، وتحدث عن الانفجار في كل من تونس والمغرب، وعدم تعاطي فرنسا على نحو إيجابي مع تلك الثورة التي اشتعلت في تلك الربوع، نتيجة الوعي الذي كان عليه أهلها. وقد عكس البيان مدى متابعة الشيخين للواقع في الأقطار المغاربية الثلاثة، عن كثب. ولعلّ ما مكنهما من ذلك، هو الحرص على الاهتمام بقضايا العرب والمسلمين، عبر مختلف الأصقاع، انطلاقا الرابطة العقدية التي توجب صرف الاهتمام إلى ذلك، فضلا عن وجود زعماء الحركات التحررية في المغرب وتونس بالقاهرة، حيث يقيم الشيخان. وقد سجل البيان بارتياح الثورة في تلك الأقطار، من خلال القول:" تأجج اللهيب بتونس فقلنا: هذا نذير من النذر الأولى، وعسى أن تكون لفرنسا فيه عبرة، وتأجج في مراكش، فقلنا:" عسى أن يكون لها فيه مزدجر، وها هو ذا يتأجج في الجزائر... فلماذا تلوم فرنسا الناس إذا اعتقدوا أن حياتهم مشروطة بموتها. "[20].

ورغبة في رفع معنويات الشعب المجاهد في الجزائر، طفق البيان في تقديم وصف فرنسا الاستعمارية التي جثمت على أرض الجزائر، ظلما وعدوانا، بالضعيفة التي باتت تكثر الشكوى في مواقع شتى مما يحصل في الجزائر. وقد جاء ذلك من خلال القول:" إن أعداءنا الأقوياء بالأمس، هم اليوم ضعفاء، وقد أصبحوا يلوذون

بأكناف الأقوياء، لذلك نراهم في هلع دائم...وعلامة ضعف الضعيف أن يكثر الحديث عن قوته..." [21].

وحمل البيان تخوف الشيخين من أن يؤول الجهاد الذي أعلنته الحركات المتأججة في المغرب العربي، إلى الانطفاء، وهو ما لا يرجوانه، ذلك أن العمل التحرري يحتاج إلى لفتات صادقة من حكومات المشرق العربي بالإمداد والتشجيع. وقد عبرا عن ذلك بالقول:" إن أخشى ما نخشاه على هذه الحركات أن تشتعل ثم تنطفئ لعدم الوقود ولو أن أغنياءنا في المشرق مم ينفقون الملايين على شهواتهم الشخصية، أنفقوا ذلك في سبيل إخوانهم المعذبين لتحررت أرض المغرب كلها ومعها فلسطين... الثورة"[22].

وأشاد البيان في الأخير، بتصريحات الرئيس جمال عبد الناصر، واعتبرها بوارق لاحت في الأفق "ستتبعها صواعق تنقض على الاستعمار الفرنسي، فتدكه دكا، وإنا لواثقون أنها لا تضيع هباء في الهواء معتقدون أن لكل كلمة من تلك الكلمات موقعا مكينا من كل نفس من إخوانهم في المغرب العربي "[23].

لم يكتف الشيخ البشير الإبراهيمي، بالبيان الأول فحسب، بل واصل تتبعه لأحداث ووقائع الثورة التي اشتعل لهيبها في الفاتح نوفمبر. حيث أنه وبعد عشرة أيام، على تفجير الثورة أصدر بيانا ثانيا بتاريخ 11نوفمبر 1954وزع على الوسائط الإعلامية المصرية وكذا وكالات الأنباء، [24] حتى تنشره على نحو واسع، ليعلم الرأي العام العربي والإسلامي، والغربي على حد سواء، ما وقع في الجزائر.

ويبدو لنا أن المدّة بين البيانين الأول والثاني، والمقدرة بأحد عشر يوما، خصصها الشيخان الإبراهيمي والورتلاني لتقصي حقيقة الوقائع، تقصيا مبنيا على البحث الدقيق والموضوعي، حتى يكون دعمهما للثورة، قائما على أساس من العلم الصحيح الذي يشمل الأشخاص الذين أشعلوا فتيلها، وأهدافها القريبة والبعيدة، فضلا عن مشروعها.

وقد جاء البيان السالف الذكر، تحت عنوان" **أوسع المعلومات عن بداية الثورة في الجزائر بيان مكتب جمعية العلماء الجزائريين بالقاهرة**". وبالعودة إليه، تصفحا وتدقيقا، ندرك عمق استعداد الجمعية لرؤية هذا اليوم المشهود في تاريخ الجزائر، بعد أن طال

ليل الاستعمار وبلغ فيه الظلم مبلغا خطيرا. وقد أوضح الشيخ الإبراهيمي أنه" نحن الجزائريين الموجودين خارج الجزائر، كنا نترقب هذه الثورة ونتوقعها، نترقبها لأنها الأمل الوحيد في تحريرنا من العسف الفرنسي... "[25]. أما توقعه للثورة في الجزائر، فقد عزاه الإبراهيمي إلى " أن فرنسا لا تفهم إلا هذه اللغة ولا يفتح آذانها إلا هذا الصوت "[26].

وبالنظر إلى افتقار الشيخ الإبراهيمي للمعلومات الخاصة بتفجير الثورة، فإنه أعاد نشر البيان الذي نشرته جريدة المصادر، لسان حال جمعية العلماء المسلمين في الجزائر. حيث نأى بنفسه استقاء المعلومة من المصادر الفرنسية المضللة للرأي العام في الجزائر وفي الخارج على حد سواء، إدراكا منها لأهمية المعلومة في صياغة وبلورة الأفكار التي تشكل أساس المواقف. خاصة إذا علمنا أن بيان الحاكم العام في الجزائر " روجيليونير" شكل بنسبة كبيرة مصدر الكثير من وسائل الإعلام في الجزائر وفي الخارج، بل حتى بعض قادة الثورة، عادوا إلى البيان نفسه، لمعرفة حقيقة ما وقع. فلولا البيان لما عرفوا أن الثورة قد اندلعت ونجحت في الأماكن الأخرى، نظرا لغياب وسائط الاتصال بين القادة.

وفي الخامس عشر نوفمبر1954، أصدر الشيخان الإبراهيمي والورتلاني في القاهرة، بيانا إلى الشعب الجزائري، ومجاهدي جيش التحرير الوطني، وناشد الجميع بالإقبال والاستمرار على طريق الجهاد والعمل على عدم التراجع عنه قيد أنملة. وقد جاء تحت عنوان دافع، محفز، ومحرض على القتال "نداء إلى الشعب الجزائري المجاهد... نعيذكم بالله أن تتراجعوا... "[27].

وقد انطوى البيان على تحفيز باتجاه المضي نحو طريق الجهاد، لا لشيء إلا " لأنه هو الصوت الذي يُسمع الآذان الصمّ... ويفتح الأعين المغمضة، وهذه هي اللغة التي تنفذ معانيها إلى الأذهان البليدة..."، ثم راح يذكر الجزائريين ببلايا الاستعمار الفرنسي، وكيف أن العالم كان يتعجب لعدم الثورة عليه. خاصة وأن فرنسا ما فتئت تسوق الشباب الجزائري ليقاتل في سبيل فرنسا ويموت في غير شرف ولا محمدة. ولو أن أولئك ماتوا في سبيل الجزائر، لماتوا شهداء. وقد وظف الشيخ الإبراهيمي التاريخ، إدراكا منه لدوره

الرئيس في التعبئة والتحريك باتجاه الالتفاف حول فكرة الثورة وبعث الحماس في النفوس، حتى يقبلوا على القتال في سبيل الله على طريق استعادة الاستقلال بإيمان قوي وإرادة كبيرة. حيث وقف عند محطات كثيرة، في تاريخ الجزائر، وأحسن الربط بينها، للوصول إلى ترسيخ القناعة لدى الشعب بأن الجهاد هو الحل البديل للاحتلال ولا حلّ سواه. ونلمس ذلك بشكل جليّ في السياق، عندما عاد بالذاكرة إلى الفترة إلى حارب فيها الجزائريون إلى جانب فرنسا، وفي سبيل بقائها، مدّة تعادل نصف المدّة التي استغرقتها المقاومة الوطنية العسكرية للاحتلال. بيد أن فرنسا لم ترع جميلا ولم تكافئ بجميل صنيع الجزائريين معها. وما وقع في شهر ماي 1945خير دليل على أن فرنسا لا تراعي دينا ولا عهدا، ولا قانونا ولا إنسانية[28].

ثم انتقل البيان إلى التذكير بعدم الخوف من الموت، على اعتبار أنه كتّاب مؤجل، حتى يبعث القوة في نفوس المجاهدين، ليثبتوا في مواجهاتهم الدموية مع قوات الاحتلال على امتداد مناطق الجزائر، وحتى يُقبل الآخرون الذين لم يلتحقوا بالقتال، على ساحات الوغى، من غير تردد أو إدبار. وقد عبّر عن ذلك بالقول:"...إنكم كتبتم البسملة بالدماء، في صفحة الجهاد الطويلة العريضة، فاملؤوها بآيات البطولة التي هي شعاركم في التاريخ وهي إرث العروبة والإسلام فيكم **ما كان للمسلم أن يخاف الموت... فسيروا على بركة الله وبعونه وبتوفيقه إلى ميدان الكفاح المسلح، فهو السبيل الواحد إلى إحدى الحسنيين، إما موت وراءه الجنة، وإما حياة وراءها العزة والكرامة** "[29].

ثم استشهد بآيتين من القرآن الكريم، للتأكيد أكثر على وجوب القتال اليوم وليس غدا، طالما أنه قد أعلن، كما بشرهم بالنصر الأكيد. مذكرا الجميع بقول الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠ ﴾[30] وقوله تعالى: ﴿ ...كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةَۢ كَثِيرَۢةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٢٤٩ ﴾[31].

لقد شكل البيان الثالث، نقلة نوعية في تعاطي الشيخ الإبراهيمي مع معطى الثورة في الجزائر، التي كانت بحاجة ماسة إلى فتوى تضفي طابع الشرعية على العمل المسلح في الجزائر، وهو ما من شأنه [32] أن يزيد في إقبال الشعب على التجنيد، استجابة لنداء الشيخ الإبراهيمي الذي يحظى بثقة ووزن كبيرين، ليس في الجزائر فحسب، ولكن على امتداد العالم الإسلامي. بل إن فتواه فتّحت الأبواب على مصراعيها أمام الشعوب العربية والإسلامية التي تلمست فيها الإخلاص والقدرة على إعادة بناء وصياغة الراهن العربي والإسلامي، الذي أصيب في مقتل بعد حرب 1948 وإعلان قيام دولة اليهود بأرض فلسطين [33].

3-الشيخ الإبراهيمي وجبهة تحرير الجزائر:

في تطور نوعي و لافت، في حراك الشيخ الإبراهيمي الذي لم يأل جهدا في التنديد بالاستعمار الفرنسي، والدعوة للثورة عليه التي ما انفك يضيف إليها مفردة "المباركة "، عن طريق البيان أو المداخلات عبر أمواج الأثير، لتصل نقاطا كثيرة وبعيدة من العالم، الذي أضحى دائم الاستماع إلى ما تذيعه من بيانات الشيخ الإبراهيمي إلى جانب مفكرين وعلماء آخرين، تزاحموا للدفاع عن الثورة الجزائرية والدعوة لها، فضلا عن المراسلات الكثيرة التي ما فتىء الشيخ الإبراهيمي يرسلها لرؤساء الدول العربية وملوكها، ملتمسا منهم تقديم الدعم المادي و المالي والإعلامي للثورة، إلى جانب الحضّ على الدفع بها باتجاه المؤسسات الدولية، وعلى رأسها هيئة الأمم المتحدة، وهو ما تضمنته مراسلته للملك سعود الفيصل، ملك المملكة العربية السعودية، الذي دعاه إلى " تكليف الأستاذ أحمد بك الشقيري والأستاذ عبد الرحمن عزام باشا، أو أحدهما بالاستعداد من الآن لمتابعة قضايا الجزائر والدفاع عنها باسم جلالتكم كعون وتعزيز لسفارتكم بواشنطن. إن رأيتم هذا ووافقتم عليه، كنتم قد وضعتم القضية في يد محام بارع عالم بأدلتها وبراهينها ومحيط بجزئياتها وكلياتها... "[34].

وتداعى القادة والمسؤولون الموجودون في القاهرة، بعد دراسة الأوضاع في الجزائر، دراسة مستفيضة من خلال استعراض كافة المعطيات، في ظل الثورة التي شهدتها الجزائر في الفاتح نوفمبر 1954 وما يحدث فيها من عدوان عام وشامل، من طرف سلطات الاحتلال الفرنسي التي آثرت الخيار الأمني كأولوية قصوى، في استراتيجيتها للقضاء على الثورة.

وقد انتهى المجتمعون إلى وجوب تشكيل إطار عام وجامع لكافة القوى الوطنية، بخلاف جبهة التحرير الوطني التي لم تكن تضم عند التأسيس سوى عناصر من حركة الانتصار للحريات الديمقراطية. ولهذا كانت الرغبة في إيجاد جبهة أكثر تمثيلا، فضلا عن السعي إلى تشكيل إطار وحدوي. وقد أطلق عليه اسم "جبهة تحرير الجزائر". وكان الشيخ الإبراهيمي الطرف البارز فيها. وقد تضمن الميثاق الخاص بالجبهة، ديباجة وتسعة بنود، تتحدد في الآتي [35].

1-يعتبر الشعب الجزائري على اختلاف أفراده، وهيئاته –فيما يختص بالكفاح الرهيب-كتلة واحدة، هي الأمة الجزائرية. ومن شدّ، شدّ في النار.

2-تسمى الهيئة المنضوي تحت لوائها أبناء الجزائر، المسؤولون المقيمون في القاهرة –"جبهة تحرير الجزائر ".

3-تعمل الجبهة لتحرير الجزائر، من الاستعمار الفرنسي، ومن كل سيطرة أجنبية، مستعملة كل الوسائل الممكنة لتحقيق أهدافها.

4-الجزائر عربية الجنس، مسلمة العقيدة: فهي بالإسلام والعروبة كانت، وعلى الإسلام والعروبة تعيش. وهي في ذلك تحترم سائر الأديان، والمعتقدات والأجناس وتشهر بسائر النظم العنصرية الاستعمارية.

5-الجزائر جزء لا يتجزأ من المغرب العربي، الذي هو جزء من العالم العربي الكبير، وأن اتجاهها إلى العروبة وتعاونها مع الشعوب، والحكومات والجامعة العربية، أمر طبيعي.

6-الإيمان بوجوب توحيد الكفاح بين أقطار المغرب العربي الثلاثة: تونس الجزائر، مراكش.

7-جبهة تحرير الجزائر مستعدة من الآن لتندمج في هيئة أجمع وأشمل للأقطار المغربية الثلاثة بنظام يوضع، ومسؤوليات تحدد. وتهيب بالقائمين على الحركات التحريرية في كل من تونس ومراكش أن يضعوا أيديهم في يدها، وأن يعملوا معها على تأسيس هيئة تنظم الجميع.

8-تنتهز الجبهة هذه الفرصة، لتبعث بتحياتها الأخوية إلى سائر المكافحين في الجزائر، سواء منهم من حمل السلاح، أم من كان عاملا وراء الميدان، وإلى المساجين والمعتقلين السياسيين ضحايا القمع والإرهاب، مترحمة على الشهداء.

9-وتهيب جبهة تحرير الجزائر، في القاهرة بإخوانها في العالمين: العربي والإسلامي، وبأحرار الدنيا جميعهم ليناصروا الجزائر في كفاحها من أجل حريتها واستقلالها [36].

وللإشارة فإن "جبهة تحرير الجزائر" ضمّت الشيخين الإبراهيمي والورتيلاني، عن جمعية العلماء المسلمين، إلى جانب أحمد بن بلة، محمد خيضر وحسين آيت أحمد عن جبهة التحرير الوطني، حسين الأحول وامحمد يزيد عن للجنة المركزية لحركة الانتصار للحريات الديمقراطية، أحمد مزغنة والشاذلي مكي، عن الحركة الوطنية الجزائرية، وأحمد بيوض عن الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري [37].

وذهب المؤرخ أبو القاسم سعد الله، في سياق البحث في مفهوم التحرر الوطني إلى التوسع في مفهوم التحرير الذي ضيقته القراءات الحزبية الضيقة التي تقصر العمل من أجل التحرير الوطني على العمل العسكري فقط، و تلغي كنتيجة حتمية لذلك، كلّ عمل بصرف النظر عن طبيعته وعمقه و تأثيره، حيث يذكر:"... فبالعودة إلى الظروف التي ولدت فيها الثورة، سيما منذ سنة 1945، ندرك أن هناك رجالًا كانوا يُعِدُّون لها بطرق مختلفة، وليس بطريق واحد، فمنهم من كان يعدّ لها بتوفير الأسلحة والتدريب العسكري، ومنهم من كان يحضر لها بتدبير المال والوسائل المادية، ومنهم من كان يخطط لها بالتكوين المعنوي وتربية النفوس على حب الوطن والجهاد في سبيله، ولكنهم كانوا جميعًا يعتقدون أن "دروسهم" لإعداد الثورة تكمل بعضها البعض، وأنه من الخطأ إعطاء الأولوية لهذا المدرس أو ذاك"[38].

- الهوامش:

[1]- علي مرّاد، **الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر من 1925-1940 بحث في التاريخ الديني والاجتماعي**، ترجمة محمد يحياتن، دار الحكمة للنشر، الجزائر،2007، ص 103.

[2] نفس المصدر، ص56.

[3] نفس المصدر.

[4] وما يؤكد درجة الجهل، نسبة الأمية التي انتشرت بشكل كبير، حيث أنها بلغت 94 % لدى الرجال و98 % بالنسبة للنساء. كما يذكر الباحثون في الشأن الثقافي، أن طفلا واحدا من كل عشرة من الجزائريين كان يرتاد المدرسة، ولكن بالمقابل فإن كل الأطفال الأوروبيين في الجزائر، يذهبون إلى المدرسة. أنظر: أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي 1954-1962**، ج4، دار البصائر للنشر، الجزائر،2007، ص 13.

[5] آثار محمد البشير الإبراهيمي المصدر السابق، ج1، ص 172.

[6]نفس المصدر، ص 174.

[7]نفس المصدر، ص 173.

[8]نفس المصدر، ص 174.

[9]نفس المصدر، ص 176.

[10] بلغت مدارس جمعية العلماء المسلمين، إلى غاية سنة 1954، أكثر من 150 مدرسة، يتردد عليها أكثر من خمسين ألف طفل وبنت يدرسون فيها مبادئ اللغة العربية وآدابها وأصول الدين الإسلامي والتاريخ الجزائري والإسلامي. للاستزادة أنظر: رابح تركي، **الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر**، منشورات المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، الجزائر،2001، ص 393. وفي محاضرة للشيخ الإبراهيمي بالقاهرة، حول جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ذهب إلى القول في سياق حديثه عن الانجازات، أنها أنجزت مائة وخمسين مدرسة ابتدائية، تضمّ خمسين ألفا من بنين وبنات، كما أنجزت معهدا ثانويا يضمّ ألفا وثلاثمائة تلميذ، وخرّجت من مدارسها الابتدائية نحو مائتين وخمسين ألف تلميذ، فضلا عن مشروع محو الأميّة، ونوادي التهذيب، وكذا البعثات العلمية إلى جامع الزيتونة في تونس، وجامع القرويين في المغرب، إلى جانب بعثات في مصر، العراق، وسوريا. للاستزادة أنظر: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، المصدر السابق، ج4، ص255.

[11] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، المصدر السابق، ج4، ص ص265-266.

[12] نفسه، ص 265.

[13] أصدر الشيخ ابن باديس جريدة "المنتقد" سنة 1925، وصدر العدد الأول منها يوم الخميس 2جويلية 1925، وبالنظر إلى راديكاليتها في الطرح، أوقفتها

سلطات الاحتلال الفرنسي، بعد أن صدر منها ثمانية عشر عددا. للاستزادة أنظر: رابح تركي، مرجع سابق، ص 182.

[14]آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، المصدر السابق، ج3، ص 379.

[15]نفس المصدر، ج4، ص ص258-260.

[16]- محمد البشير الإبراهيمي، **في قلب المعركة**، دار الأمة للنشر، الجزائر، 2007، ص 10.

[17]- عبد الرحمن شيبان، حقائق وأباطيل، ط2، دار ثالة للنشر، الجزائر،2009، ص 296.

[18]-راجع في هذا الفصل، موقف الحزب الشيوعي، الحركة الوطنية الجزائرية لمصالي، وكذا موقف الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري، حتى تقف الفرق الكامن بين المواقف من جهة وتدرك عمق فهم ووعي الجمعية بمتطلبات الظرف.

[19]-محمد البشير الإبراهيمي، مصدر سابق، ص 25.

[20]- نفسه، ص 26.

[21]- محمد البشير الإبراهيمي، مصدر سابق، ص27.

[22]-نفسه، ص 28.

[23]- نفسه.

[24]-نفسه.

[25]- محمد البشير الإبراهيمي، في قلب، مصدر سابق، ص 29.

[26]- نفسه.

[27]–محمد العيد تاورتة، " جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (رد فعل وأسلوب في المقاومة)"، أشغال الملتقى الوطني للفكر الإصلاحي في الجزائر، بمناسبة ذكرى استشهاد الشيخ العلامة العربي التبسي-رحمه الله –دار الهدى للنشر، الجزائر، 2003، ص 83.

- محمد البشير الإبراهيمي، في قلب، مصدر سابق، ص 19.

- الفضيل الورتلاني، الجزائر الثائرة، دار الهدى، الجزائر،2011،ص 146.

[28]- محمد البشير الإبراهيمي، في قلب، مصدر سابق، ص 20.

[29]- نفسه.

[30]الآية 20 من سورة التوبة.

[31]الآية 249 من سورة البقرة.

[32] محمد البشير الإبراهيمي، مصدر سابق، ص ص 50-51.

نفسه، انظر ص 43-45 وانظر أيضا: عبد الرحمن شيبان، **حقائق وأباطيل**،

[33] دار ثالة للنشر، الجزائر ،2009، ص ص 291-292.

[34] محمد البشير الإبراهيمي، مصدر سابق، ص ص 43-45.

[35] عبد الرحمن شيبان، مصدر سابق، ص 292.

[36] تقديم أبي القاسم سعد الله، مصدر سابق، ص 1.

[37] فتحي الذيب ، مصدر سابق.

[38] محمد البشير الإبراهيمي، في قلب، مصدر سابق.